هو العليم

تفسير آية

^ٱلله نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْأَرْضِ%

موعظة ليلة الثلاثاء

في

٢٠ شعبان ١٣٩٦ هجريّة قمريّة

المحاضرة التاسعة

سماحة العلّامة الراحل

آية الله الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

افاض الله علينا من بركات نفسه القدسيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة

٢

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]

تقدّم أنّ كلمة النّور تطلقُ على الشيء الظاهر في حدّ نفسه المُظهِر لغيره، لذلك يمكن أن نطلق لفظة "نور" على الله إطلاقاً حقيقياً وواقعياً؛ لأنّ الله أصله وجود، وجميع الموجودات متحقّقة بوجود الله، فالله ظاهر وجميع الموجودات ظاهرة بظهوره، فظهور تمام الموجودات إنّما هو بظهور الله، لذلك في الدرجة الأولى يكون الله –على مستوى كينونيّة ذاته - هو الموجود وهو الظاهر، وفي الرتبة الثانية، تكون سائر الموجودات

١ ـ سوره النّور (٢٤) صدر آية ٣٥.

٣

موجودة بوجوده وظاهرة بظهوره، لأجل ذلك، ينبغي أن تكون النظرة الأولى والرؤية الأوليّةمنصّبة على ذاك الموجود الحقيقي والوجود الحقيقي والنور الحقيقي، وبعد ذلك يقعُ النظر على الموجودات الأخرى، لأنّ الظاهر في الدائرة العلمية هو الله، وكلّ ما سوى الله باطلٌ وفانٍ، ولا يعدو كون ظهوره بظهور الله.

فالعارف هو الذي لا يرى في العالم إلا الله ونور الله، وهذه المسألة واقعيّة وليست تخيّلية ولا مجرّد تفكير نظري.

قد استعرضنا في الجلسات السابقة ضمن تفسير الآية المباركة أنّ الموجودات ـ سواء كانت آفاقيّة أم أنفسيّة ـ تدلّ على الله، وكلّ منها إنّما يُظهِرُ الله بمقدار سعته الوجوديّة، وهذه المسألة عجيبة جدّاً! عجيبة إلى الحدّ الذي تحيّرُ العقل.

يمكنكم أن تنظروا نظرة إجماليّة، مثلاً: أفرضوا أنّنا ننظرُ إلى هذه السجّادة المفروشة هنا، فنقول: كم هي سجّادة جيّدة! لكنّنا غافلين عن مادّتها التي صنعت منها، ولا نلتفت إلى الخيوط الطوليّة والعرضية التي تشكّلت منها هذه السجّادة، وأيّ مغزلٍ حيكت به! فقد ظلّوا يعملون فيها من الصباح حتّى الغروب، يوصلون تلك الخيوط الدقيقة المنسوجة من الصوف والوبر، كذلك في اليوم التالي، ثمّ بعد غدٍ، مستمرين في العمل طوال عام كامل حتّى أصبحت سجّادة بهذا الشكل، لكنّنا حينما ننظر إليها بالنظر الإجماليّ السطحيّ نقول: هي سجّادة جميلة.

كذلك إنْ تنظروا إلى مكان فيه حفل مكتظّ بالناس، تقولون: هؤلاء أناس وشعوب، لهم عقل، ولهم إدراك، ولديهم فهم، ذوو شعور.. ولكن

بشكل إجماليّ، وسطحيّ، إلا أنّنا لو تأمّلنا والتفتنا إلى تمام الأفراد الذين يتألّف منهم هذا الحشد الكبير، ولاحظنا آحادهم واحداً واحداً، سوف نتنبّه إلى أنّ ذاك الذي بَلَغَ من العمر أربعين، أو ذاك البالغ عشريناً، أو خمسيناً، كلّ هؤلاء لديهم علم، ولديهم قدرة، وهم يفهمون، ولديهم مهابة وجلالة قدر، فهم أصحاب وجاهة، كما وسوف نلتفت إلى أنّ ما حصلَ لديهم لم يكن عندهم من الأوّل، وإنّما اكتسبوه بشكلٍ تدريجيٍّ، وبشقّ الأنفس، فبذلوا الغالي والنفيس لتحصيل هذا العلم، ونعرف أنّ ذاك الشخص أدمى قلبه حتّى أصبح بطلاً قويّاً، وذاك أزهقَ روحه متحمّلاً الأسى حتّى حصلَ على الوجاهة، إلى أيّ حدّ تحمّل وذهب إلى المكتب.. واحتضن المحفظة تحت إبطه.. وداس في الطين.. أو على الثلج.. وتحت المطر.. في البرد.. وفي الحر.. فكان يجلسُ في حلقة الدرس ويتعلّم؛ باء طويلة.. ألف ممدودة.. سين طويلة.. حتّى بلغ رتبة من العلم وأصبحَ يجلسُ خلفَ الطاولة، ولم تكن تلك المعرفة والدراية لتأتيه دفعة واحدة، وإنّما تحمّل الكثير من المشقّات لتحصيلها.

فلو أرادَ أحدٌ أن يدرسَ إنساناً بلحاظ ما لديه من المعلومات، ثمّ يحلّل ويجزّئ وجوده على هذا الأساس، ليُشرِفَ على ما يحتويه وجوده في جميع مجالاته، فسوف يجدُ أنّ كلّ قسمٍ من هذه الأقسام يحتاجُ إلى واسعة.

وأمّا من الناحية التكوينيّة، فإنّنا نرى أنّه يمتلك قدرة.. قلبه ينبض.. ومعدته تعمل.. وكليتيه تقوم بمهامهما.. كبده يعمل.. خلايا الدماغ تعمل.. وبشكل عام تراه سالماً بحمد الله، ولكن ما معنى هذه السلامة؟ فهي تعني

أنّ هناك الملايين من الخلايا الحيّة، الملايين من الخلايا الشاعرة والعالمة والمدركة، والموظّفة بوظيفتها الخاصّة بها، بحيث أنّ تبدأ من نقطة انطلاق.. ولها هدف تنتهي إليه.. ولها قوّة جاذبة.. وقوّة دافعة.. قوّة ماسكة.. وقوّة مغذّية، هي تعملُ جميعاً متعاضدةً يداً بيد، خاضعة تحتَ ظلّ قوّة تسمّونها: "أنا" فكلّ شيء له مسؤوليّته وهدفه، ومشغول بعمله ونشاطه المخصوص به حتّى تمكّن من صنع هذا الإنسان.

وهكذا نحن أبناء البشر، حيث نقول: زيد، السيد حسن، مشهديّ، تقي، فلو أردنا أن نتدارس ونحلّل عينه التي ينظر بها، سوف نجد أنّ العمر كلّه لا يكفي لذلك؛ فما هي الأجهزة الفعّالة في العين؟ خصوصيّاتها، معايبها، مفاسدها، محاسنها، الآلام التي تصيبها، تحديد سبل العلاج، ارتباط العين مع سائر أعضاء البدن، أحاسيسها، انعكاس النور في العين، ما هي الطبقة العنبيّة؟ ما هي الطبقة الزلاليّة؟ ما هي الطبقة الزجاجيّة؟ نعم هكذا العينين! وكذلك الأذن، واللسان، والكلية كذلك، كذلك القلب، فلو بذل أحدٌ كلّ عمره ليدرسَ القلب ويتعرّف على جميع خصوصيّاته لما استطاع، هذا لو كان مجرّد مطالعة! وأمّا لو قلنا له: تعالَ واصنع لنا خليّة من خلايا القلب، اخلقها لنا.. افض عليها المادّة الحياتيّة.. أوجد الحياة في خليّة من خلايا القلب.. يقولون: نحن لم نصلْ إلى رمز الحياة وسرها بعد! نحن لا نستطيع إفاضة الحياة وإعطائها، لم ندرك سرّ الحياة بعد!!

هذا الإنسان مع جميع هذه الأجهزة وكلّ تلك الخصوصيّات، كانَ طفلاً في بطن أمّه، ثمّ وهبتْ له هذه الأعضاء، وكان قبل ذلك مضغة، وقبلها عَلَقَة، وقبلها نُطفة، وهذه النُطفة!! هذه النطفة هي التي توجب

الحمل عند المرأة.. حتى تضعَ حملها بعد تسعة أشهر.. فنقول: الحمد لله، قد وضعت حملها، فهل تعلمون أنّه في كلّ دقيقة، بل في كلّ ثانية وفي كلّ لحظة، تُطوى الآلاف من العوالم التي تعرض على هذا الطفل، وما يمرّ عليه من التغيّر والتبدّل؟! ففي كلّ لحظة يجتاز الطفل الآلاف من العوالم، ويتنقّل ضمن الآلاف من التغيّرات والتبدّلات، فالنطفة في كلّ دقيقة وفي كلّ ثانية أو ثالثة أو سادسة، لنا أن نقسّمها ونجزّئها إلى الملايين من الأقسام، حتّى نصل إلى الحدّ الذي لا يعود معه البشرُ قادراً على تقسيم ذاك المقدار من الزمان، غير أنّ العقل قادرٌ على الاستمرار في التقسيم، ليكون كلّ قسم زمانيّ يحتوي على عوالَم من التغيّرات والتبدّلات، لنعرف حينئذ كيف أنّ هذه النطفة تتحرّك وتنمو وتسير، وكيف أنّها من خلال حركة خاصّة وسرعة معيّنة تطوي الآلاف من الدرجات ممّا هو أسرع من حركة الشمس والقمر؛ فهي تتجّه وتتحرّك من الجماديّة إلى الإنسانيّة.. وأيّ سرعة هي هذه السرعة؟! حيث تتبدّل في كلّ لحظة وتتحوّل حتّى تصبح دماً فيظهر فيها عينٌ وأذنٌ، وصار لها لسان، وأصبحت يداه تتحركان وهو في جوف أمّه، وقلبه يخفق، وبعد ذلك صار ذا شعور وإحساس.. يمتلك العقل.. ولديه إدراك.

^وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا%[٢]

قد أخرجكم الله من بطون أمّهاتكم لا تدركون شيئاً، ثمّ أعطاكم العقل والوعي والدراية حتى استطعت أن تقول: أنا إنسان.

---

٢ ـ سورة النحل (١٦) صدر الآية ٧٨.

٧

هذا الإنسان هو ذاك الإنسان الذي رأيناه ضمن ذاك الحشد الكبير المؤلَّف من مائة ألف شخص، فنظرنا إليه نظرة عابرة وقلنا: هؤلاء عسكر مجتمعون، هؤلاء جماعة من الناس، ولكن ما إن دقّقنا النظر وتأمّلنا، وصرنا نتأمّل ونتبصّر بشكل دقيق، عرفنا أنّه هو تلك النطفة، ثمّ لو أراد أحدٌ أن يدرس النطفة، فسوف لن يستطيع أن يخرج من دائرة النطفة ويعرف ما وراءها ويشخّص العوالم التي طوتها حتّى صارت نطفة، فذاك له حساب آخر.

فما هو ذلك؟ ما هي المسألة؟! هل النطفة سارت وتحرّكت من تلقاء نفسها؟! هل تتحرّك هذه الشجرة وتنمو من نفسها؟! هل يدفع العصفور نفسه بنفسه؟! هذه الحمامة حينما تبيضُ وتجلس على بيضها، ثمّ بعد أيّام قلائل تتحوّل إلى فراخ تبحث عن الحبوب.. فهل هو من نفسها؟! فهذه الحمامة مسكينة، وهي ضعيفة إلى الحدّ الذي يمكن لأيّ قطّة أنْ تمنعها من إلتقاط حبوبها! هذا الذي تمتلكه من الشعور.. وهذا هو كلّ ما تمتلكه من القدرة على النظر.. والسمع.. وحركة معدتها، وتمام خلاياها، فتنام ليلاً في عشّها وتبقى خلاياها تنبض وتعمل وتنمو، وجميع بصيلات ريشها حيّة في حالة نموّ وتكامل، وفي تلك الليالي الحالكة حيث تكون الحمامة نائمة في عشّها مع فراخها، فإنّها وفراخها في حالة نمو دون توقّف، فلا القلب يتوقّف، ولا الكلية تتعطّل ولا الكبد، ولا يتوقّف هذا الموجود عن سيره وحركته لحظة واحدة!! فاحسبوا ذلك وطبقّوه على الحمام وبيضها، والدجاج والماعز، والحيوانات البريّة والبحرية والطيور،

والإنسان، والجماد، وكلّ الكون والمكان، تكون النتيجة أن هذا العالم لا يتوقّف لحظة واحدة.

وإنْ يتوقّف لحظة واحدة فهو الموت، لا ليس الموت!! لأنّ الموت رتبة من عالم الوجود، موجود في عالم نفس "عالم الموت"، وله حركة ومبدأ.. وإنّما يعني العدم و"عالم المعدوم"، أصلاً لا وجود للعالم حينئذ، إلاّ أنّنا لا نقدر على تصوّر ماذا يعنيه انعدام العالم، لأنّنا موجودون دائماً في عالم الوجود والكينونة، لا يمكننا تعقّل معنى العدم.

ونحن إذ نفتح أعيننا لنعاين عالم الآفاق وننظر إليه، سوف نعاينُ الله ونشاهدُه في كلّ أفق، وذلك بواسطة المرايا المتعدّدة، الكائنة في عالم المُلك والملكوت، لذلك لم نخرج عن دائرة الحكومة الإلهيّة لحظة واحدة إلاّ إذا تذوّقنا معنى العدم وأدركنا حقيقته! لأنّنا لو وقعنا في عالم العدم فهذا يعني أنّ أنفسنا موجودة في حال أنّها أدركت العدم، والحال أنّ كوننا: "نفوسنا موجودة"، يعني أنّنا موجودون! وعليه فلا يمكننا إدراك معنى العدم.

نحن كائنون في الوجود بشكل دائم ننحدر منه، فإنْ نَنَمْ، نكون سائرين في الوجود، وإنْ نستيقظ فإنّنا في الوجود، إنْ ُنفكّر! فإنّنا نتحرّك في الوجود، وإنْ نرجع إلى أنفسنا، فنحن في الوجود، وإنْ نلتفت إلى الخارج... ونحيا فنحن موجودون، أو نموت فنحن موجودون. ومع أنّنا نشاهدُ هذه التغيّرات ونعاين تلك التبدّلات من صورة إلى صورة أخرى، ومن شكل إلى شكر آخر، إلاّ أنّ أصل الوجود ذاك ومحوريّته تلك باقية وثابتة في تمام هذه الموجودات.

٩

فأيّ لحظة مرّت علينا وكنّا معدومين حتّى نقدِرَ على تعقّل العدم؟! نعم، هناك معنى عن العدم ضعيف جدّاً نحسّ به، هو "عدم الملكة"، فنقول مثلاً: هذا المذياع ليس موجوداً هنا، فهو ليس موجود، ولكن عدم وجوده هنا لا يعني عدمه بشكل مطلق، بل بشكل مقيّد، وإلاّ فالعدم المطلق لا معنى له أصلاً حتّى نستطيع تصورّه، ونعطيه حظّاً من الوجود، فما نتصوّره من العدم إنّما هو بنحو الاستخدام (بين العدم المطلق والعدم المقيّد) وهو مجرّد تصوّر عن العدم، وليس إدراكاً لحقيقة العدم ولا إشرافاً على معناه وإحضاراً له في وجودنا!

إذن، حينما نفتح أعيننا نرى أنّ جميع هذه العوالم هي ظهورات لله، مع أنّنا نطلق عليها حسب النظر الإجمالي: سجادة، نصفها أنّها سجادة جميلة، وننظر إلى الكتاب فنقول: مؤلّفه رجل دين متفقّه، وننظر إلى الإنسان فنقول: إنّ الذي خلق الإنسان هو الله القادر.. وأمّا حينما ننظر إليه نظرة تفصيليّة، فسوف يثير الدهشة والتعجّب، فإنْ ننظر إلى عقلاء العالم، ومفكري العالم، وعلماء العالم الرياضيين، أطباء العالم، فلاسفة العالم، إلى كلّ شخص له تخصّص في مجال معيّن.. سوف يقعُ الإنسان متحيّراً ويقول: إلهي! أنا متحيّر! فأيّ عظمة! وأيّ قدرة! وأيّ أبّهة هي هذه! أيّ كبرياء! أيّ عزّة! وإلى أيّ حدّ؟!

وفي النتيجة، نجد بعض الأنبياء يتيهون في الصحاري ويهجعون في الجبال و.. وهو أمرٌ غير عاديّ أبداً! فكانوا في أوّل سيرهم يستغرقون في مدارج التفكّر والتأمّل، حتّى ينسدّ الباب أمام فكرهم وتفكيرهم، حينئذٍ يركنون إلى قدرة أخرى ليستمدّوا منها، تلك القدرة هي طاقة الوجدان

وقدرة القلب، لذلك كانوا يتيهون في الصحاري والقفاري، يمكثون في أماكن الخلوة، في الجبال، في الكهوف والغيران حتّى يستمدّوا من تلك الطاقة وذاك المدد ويروا حقيقة هذا الموجود الظاهر في كلّ شيء.

حسناً! ما هي هذه الموجودات؟! هل هي الله؟ فأين نجد الله؟ هلْ هو فوق السماء؟! لا، ليس هذا هو الإله، أو تحت الأرض؟! لا، فما هو الله؟ الله هو ذاك الموجود الحيّ والعالم والشاعر والقدير والمدرك الموجود في كلّ الأماكن، موجود في هذه البيضة مع جميع خلاياها، وهذا لا يعني أنّ الخليّة هي الله!! بل هي مَظهَرٌ لله، يعني: إنّ لله معيّة معها، فللّه معيّة مع كلّ موجود.

فالإله الذي ندعوه ليس موجوداً في السماء، ولا نمدّ يدنا حين الدعاء لتصل إلى مكان السماء!! وإلا فالله تحت الأرض كذلك، وهو في المشرق، وفي المغرب، وهو مع كلّ موجود، فافتحْ عينيكَ وحدّق في كلّ ما يقع عليه ناظرك فإنّه في الرتبة الأولى هو الله، ثمّ في الرتبة الثانية هو ذاك الموجود، وهذا هو معنى واحديّت الله ووحدانيّته.

"الله" يعني: تلك الذات المستجمعة لتمام صفات الجمال والمستجمعة لجميع صفات الكمال، وهي الحقيقة التي تملأ كلّ العالم، وموجوديّة أيّ عالم هي من الله، والعلم والقدرة وتمام الصفات التي تظهر في الموجودات قاطبة وتبرز فيها لها معيّة مع صفات الله، وليست منفصلة عنها ولا مغايرة لها.

وكم هو رائع وصف أمير المؤمنين عليه السلام:

"داخل في الأشياء لا بالممازجة، وخارج عنها لا بالمباينة، داخل في الأشياء لا كدخول شيء في شيء، خارج عنها لا كخروج شيء عن شيء"[٣].

فالله ليس بجسم ليتداخل ويمتزج، كما وأنّه ليس جسماً حتّى يخرج وينفصل، فالجسم موجود متعيّن ومحدود وضعيف، وهو أحد ظهورات الله، فالقدرة والعلم وظهور الله له معيّة مع هذه الرتبة من الوجود، وكلّ موجود متقوّم في الرتبة الأولى بذات الله، دون ذاته، والنتيجة هي أنّ الله سبحانه قد أخذ جميع العوالم.

أيّ مكانٍ يمكنكم أن تعثروا عليه ولا يكون الله فيه؟! أين؟! بل أيّ مكان تنظرون إليه فهو وجود، حتّى هذا الفضاء هو وجود، وعليه لماذا لا نرى الله؟! لماذا يقولون إنّ الله مخفيّ؟! لماذا ينكرُ بعضهم وجود الله؟!

وفي صدد الجواب نقول: إنّ أصل إنكار الله أمرٌ خاطئ، لأنّك حيث تقول: أنا أنكر وجود الله، فهذه "أنا" تعني أنّني أنا موجود، وهو يعني أنّ الله موجود، لأنّه لو لم يكن الله موجوداً فأنا معدوم، فكل من يقول: أنا موجود، فإنّه قبل أن يتفوّه بكلامه هذا يكون قد أثبت وجود الله في الرتبة السابقة، لأنّ إنّيتي ووجودي قائمان بالله.

هذا هو معنى كون الله نوراً، ليس نوراً ماديّاً، وإنّما بمعنى كونه وجوداً وظهوراً، فهو ظاهرٌ أولاً وبالذات وتمام ظهور الموجودات ظاهرة بظهوره.

---

٣ ـ توحيد الصدوق صفحة ٤٢.

وعليه لماذا لا يقبل الله الرؤية؟! بل إنّه يُرى، من الذي قال إنّه لا يُرى! فالسؤال الأوّل هو أنّه: ما هو معنى الرؤية؟ فمشاهدة هذه البيضة تحتَ الدجاجة، أليستْ هي رؤية لله؟! وهذه الحبّة التي تنفلقُ وتتحوّل بعد عدّة أيّام إلى نبتة خضراء، أليس ذلك مشاهدة لله؟! نحن نقول: صار العشب أخضراً.. القمح تحوّل إلى سنبلة.. لكنّنا هل ندري ما الذي يحدث في الداخل؟! أليس ذلك مشاهدة لله؟!

ثمّ نريد أنْ نحسّ ونشعرَ بالله بوجداننا، فالله من شدّة ظهوره مخفيّ، هو ظاهرٌ ظاهر وقريبٌ قريبٌ قريب إلى الحدّ الذي صار قريباً قريباً جدّاً، بحيث كلّما نريد أن نقول لله إنّك قريب، لا نستطيع ذلك.

لماذا لا نستطيع قول ذلك؟ فالقريب هو الشي الذي أتى من البعيد واقترب تدريجيّاً، وأمّا من كان قريباً من الأوّل إلى حدٍّ أنّه كان متّحداً مع الإنسان من أوّل الأمر، لا أنّهما كانا شيئان ثمّ اتحدا وصارا شيئاً واحداً، أيْ إنّ وجود الإنسان وقوام وجوده وأصله هو الله، ونحن إنّما وُجدنا ببركته ومنه، فهو قريب إلى الحدّ الذي أصبح إطلاق لفظ القرب عليه من باب المسامحة.

وعليه فكيف يمكننا أنْ نجده ونعثر عليه؟! كيف نكشف النقاب عنه؟! وإلى أيّ حدٍّ هو قريب؟! فلو كان قريباً من الإنسان بحيث تكون الفاصلة بينهما متراً واحداً، فيمكن حينئذٍ مشاهدته، أو نصف متر، وكذلك سنتيمتر واحد، أو ميلّيمتر أو ميكرونٍ واحد... لا، بل هو قريب إليّ بحيث يكون أقرب منّي إلى ذاتي! فأنا متقوّمٌ به وهو أسبق منّي، وهذا أمرٌ عجيب جدّاً!

^ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ%[٤]

ونحن حينما نفتح أعيننا وننظر ونشاهد الموجودات المحيطة بنا، فإنّ أوّل ما يواجه العين هو الموج الشعاعي المنعكس، وببركته نتمكّن من الرؤية، أليس كذلك؟! حسناً، لماذا لا نرى الأمواج المنعكسة نفسها؟! وإنّما نرى الأشياء!!

وما ذلك إلاّ لأنّ الموجَ المنعكسَ قريبٌ إلى حدٍّ أصبح متّحداً مع العين، والصورة التي تنعكس في العين إنّما هي بواسطة هذا الموج، لذلك حينما نفتح العين لا نرى هذا الموج الرابط بيننا وبين الأشياء، مع أنّه أقرب من الأشياء! فهذا النور المنعكس في العين والذي يصوّر الأشياء في العين سابق على نفس الصور المنتقلة إلى العين، ولكن لماذا لا نراه؟! وهذا ليس محلاً للشكّ والتردّد، أبداً! فكلّ شيء ينعكس في العين وترى العين صورته إنّما هو بواسطة الأمواج النوريّة، والحال أنّنا لا نرى الموج نفسه، وما ذلك إلا لشدّة القرب، فإلى أيّ حدّهو قريب؟ هو قريب إلى حدٍّ أنّه أقرب من القرب نفسه! بحيث أنّه يمكننا عدّ استعمال لفظ القرب والقريب في ذلك مجازاً، لذلك يقولون: يا الله يا أقرب..! يا أقربَ الأقربين! يا قريب! ماذا يقولون كذلك؟ ماذا بيّن لنا الأنبياء عن ذلك؟ أفهل يوجد غير هذه الألفاظ في قاموس اللغة؟! فهم يريدون أن يبيّنوا هذه المسألة فيقولون: قريب.

---

٤ ـ سورة ق (٥٠) ذيل الآية ١٦.

وعليه، فنحن نتعامل في نهارنا وليلنا مع الله، بل إنّنا لسنا مع غير الله، أين يمكنكم أن تجدوا مكاناً لا يكون الله فيه؟! فعلى سفرة الطعام؛ قد جلس الله قبلكم.. في السرير؛ الله قبلكم.. حين الصلاة؛ الله سابق لكم.. في كلّ عمل هو سابق لكم، فمن أين يمكننا أن نعثر على محلٍّ لا يكون فيه؟!

يقولون: كانَ عند أحدِ العرفاء عدّة تلامذة، وكان يربيهم أخلاقيّاً وسلوكيّاً، وكان هناك أحدُ هؤلاء التلاميذ أصغر سنّاً من الباقين، فكان العارف يبدي له الكثير من الاحترام، إلاّ أنّ الباقين كانوا يشعرون بشيء من الحساسيّة في داخلهم لما كان أستاذهم يحترم هذا الصغير أكثر منهم، فأراد الأستاذ أن يمتحنهم ليفهموا أنّ سبب هذا الاحترام هو مستوى إدراك هذا الشخص ومعرفته، فقال لهم: كلّ من يريد أن يشارك في درسي غداً، عليه أن يذهب إلى مكانٍ خالٍ لا يراه فيه أحدٌ، ويأخذ معه دجاجة ويذبحها هناك ثمّ يأتي إلى الدرس، فقال الجميع: سمعاً وطاعة. فذهب الجميع، وذبح كلّ منهم دجاجة في مكانٍ لم يره فيه أحد، ثمّ أحضروها إلى مجلس، إلاّ أنّ ذاك التلميذ الذي كان أصغر سنّاً من الجميع لمْ يحضر، وهكذا لم يأتْ إلى عدّة أيّام حتّى مضتْ مدّة من الزمن، ثمّ أتى بعد ذلك وبيده دجاجة حيّة، فسأله الأستاذ: لمَ لمْ تذبح؟ فقال: كلّما كنتُ أذهبُ إلى مكانٍ لأذبحَ الدجاجة، كنتُ أرى أنّ الشرط الذي اشترطتموه غير متحقّق، فأنت قلتَ: اذبح الدجاجة في مكان لا يراك فيه أحد، وإلى أيّ مكان كنتُ أذهبُ إليه كنت أرى أنّ الله موجود، لذلك أحضرت الدجاجة بيدي، فقال الأستاذ: هل رأيتم! إنّ سبب احترامي له

هو فهمه وإدراكه، فوجدانه يقول: الله، إنْ تذهب إلى السماء فالله موجود، وفي الأرض الله، وفي المشرق الله، في المغرب الله، في البحر الله، في الهواء الله.

پر شد از قصّه تو لوحِ وجود
نَبرَد قصّه تو دفتر دل(٥)

دوش با بلبلان عالم غيب
مى زد اين داستان، كبوترِ دل(٦)

كه جهان پر توى است از رُخ دوست
جمله كائنات سايه اوست(٧)

وعليه، فأين هو المكان الخالي من الله حتّى نختار الذهاب إليه ونبحث فيه عن الله ونجده ونعثر عليه؟! فنحنُ إنّما نجدُ الليلَ لأنّه في مقابل النّهار، ونجد البياض لأنّه مقابل السواد، ونستبين النور لأنّه يقابل الظلمة، وندرك الماء لأنّه في مقابله الهواء، ولكنْ، من أينَ لنا أنْ نجدَ العدم المقابل للوجود؟! فنحن غارقون في الوجود!

وجودِ جمله اشياءِ به ضدّ است
ولى حقّ را نه مانند و نه ضدّاست(٨)

---

٥ ـ يعني: امتلأ لوح الوجود من قصّتك، فدفتر القلب لا يسع قضيّتك وقصّتك!!
٦ ـ يعني: فقد كان حمام القلب يحكي هذه القصّة ليلاً مع عصافير (العندليب) في عالم الغيب.
٧ ـ يعني: فالعالم مظهرٌ من جمال الحبيب والكائنات برمّتها ظلّه وظلّ الحبيب.
٨ ـ يعني: وجود جميع الأشياء بأضدادها، ولكنّ الحق لا شبيه له ولا ضد له.

تماماً مثل السمكة، حيث إنّها تعيش في البحر من أوّل عمرها حتّى آخره، فمن ذاك الحين الذي تزوجْت والدتُها وانعقدت النطفة وتبدّلت إلى بيض في بطن أمّها.. كانت في الماء، كذلك حينما وضعتْ أمّها حملها، كانت في الماء، كذلك كان نمّوها وكِبرها في الماء، فطافت وتفتّلت في هذا الجانب، وكان ذلك في الماء، وكذلك طافت في الجانب الآخر، وكان ماءً، حتّى وصلتْ هذه السمكة إلى سنّ الهرم، وكلّه ماء، إلاّ أنّها مع كلّ ذلك تقول: ما هو الماء؟! مثال جيّد!! نعم، تقول: الماء ما هو؟ يعني هي تسأل واقعاً؟ فالناس يقولون: الماء موجود، الماء مادّة وعنصرٌ حياتيّ، ولكن حينما سألوا الأسماك عن الماء؟! اجتمعوا وعقدوا مؤتمراً.. وتظاهروا.. وتجمّعوا متضامنين يداً بيد.. ثمّ أتوا إلى مِلكِهم يطرحون عليه معضلتهم، أنْ ها قد أشرفنا على الموت واقتربنا من ترك دار الدنيا دون أنْ نفهم معنى الماء؛ فالجميع يقولون: الماء مادّة حياتيّة، فمن المؤسف أنْ نغادر هذه الدنيا ولا نتذوّق من الماء!! إلاّ أنّ ملكهم كانَ ذكيّاً حاذقاً، لما كان قد مرّ بتجربة سابقة في يومٍ من الأيام، حيث كان الموجُ قدْ رماه على الشاطئ، ثمّ وُفقَ وعاد إلى الماء ثانية، إلاّ أنّه حينما كان ينظر وهو على الشاطئ، كانَ قد تنبّه إلى أنّه لا يوجد هناك ماء، وفهم معنى عدم الماء، وأدرك المعنى المقابل لمعنى الماء، فقال لهم: أنّى لي أنْ أخبركم وكيف يمكنني ذلك، إلاّ أنّي أدعوَ الله أنْ يرسل موجة تخرجكم من الماء إلى الشاطئ، وتسحبكم من الماء، وإلاّ فلن تستطيعوا إدراك معنى الماء! فالماء هو هذا الذي تعيشون فيه، هذا هو الماء، ولكنّ ما الذي فهمه السمك؟!

به دريائى شناور ماهيى بود

که فکرش را چو من کوتاهیی بود[۹]

نه از صیّاد تشویشی کشیده

ونه رنجی از شکنجِ دام دیده

نه جان از تشنگی در اضطرابش

نه دلسوؤان ز داغ آفتابش

در این اندیشه روزی گشت بی تاب

که می گویند: مردم آب، کو آب؟

کدام است آخر آنِ اکسیر جان بخش

که باشد مرغ و ماهی را روان بخش؟

اگر یا ربّ متاع این جهان است

چرا یا ربّ ز چشم مانهان است؟

جُز آبش رد نظر شام و سحر نه

---

۹ ـ يعني: كان في البحر سمك يسبح ولكن كان تفكيره ضعيفاً وساذجاً مثل تفكيري.

لم يكن في لبّه تشويش ولا في قلبه اضطراب، ولم يكن لديه أي تعبٍ أو ذعرٍ من شباك الاصطياد! بل كان مرتاحاً.

ولم تكن نفسه مضطربة من العطش، ولم يكن قلبه محترقاً من شدّة حرارة الشمس!

لكنّه في يومٍ من الأيّام تحيّر من هذه الفكرة التي خطرت على باله، وأصبح متعباً من ما يقوله الناس: أنّه هناك شيء اسمه ماء.

أينَ الماء الذي هو عبارة عن الإكسير الذي يعطي الحياة؟ ويمدّ الطيرَ والأسماك بالحياة؟

يا ربّ!! لو كان هذا الماء هو متاع هذا العالم، فلمَ لا نراه نحن ولا نحسّ به!!

هو في الماء طوال ليله وسحره ولا شيء أمام نظرية إلا الماء، فهو مرتاح في الماء ولكنّه لا علم له بذلك ولا خبر.

وفي إحدى مراحل حياته غفلَ عن شكر هذه النّعمة، وفي هذه الحالة جاءه تيّار وأخرجه من البحر وألقاه مرميّاً على الشاط.

در آب أسوده وَز آبش خبر نه

مگر از شکرِ نعمت گشت غافل

که موجِ افکندش از دریا به ساحل

فخرجت الأسماك إلى الشاطئ، لما كان دعاء السلطان قد استجيب (مثلاً).

بر او تابید خورشید جهان تاب

فکند آتش به جانش دوری آب[١٠]

زبان از تشنگی بر لب فتادش

به خاك افتاد وآب آمد بیادش

ز دور آواز دریا چون شِنُفتی

به روی خاك غلطیدی وگفتی

که اکنون یافتم آن کیمیا چیست

که امّید، هستیم بی او دمی نیست

دریغا دانم امروزش بها من

که دستم کوته است او را ز دامن

١٠ ـ يعني: وسطعتْ عليه الشمس المضيئة على العالم، وألهبه البعد عن الماء وأشعل النار في قلبه.
فامتدّ لسانه وخرج من فمه من شدّة العطش، فوقعَ على التراب وهو يتذكّر الماء.
فلمّا سمع صوت البحر من البعيد، كان يتدحرج على التراب ويقول:
الآن قد وجدت هذا الإكسير، فأمنيتي في هذه الحياة لا تتمّ لحظة إلا بهذا الإكسير.
ولكن ومع الأسف، حيث أنّي في هذا اليوم أعرف قيمته، فإنّ يدي مقطوعة عن ذيلي.

فإنْ يأتنا موجٌ يخرجنا من عالم الوجود إلى عالم العدم، حينئذٍ سوف نفهم ما هو معنى الله!! ولكن مادمنا في عالم الوجود؛ أي نحن موجودون والله موجود، فلا نكون قد دخلنا في عالم العدم، بل إنّ كوننا نريد أن نصبحَ عدماً ونريد أن نكون عدماً، هو بذاته يعني أنّنا موجودون، فنحن لا يمكن أنْ نصبحَ عدماً، لأنّه لا وجود للعدم، فعالم الوجود مملوء بالوجود.

إذنْ، بسبب شدّة ظهور الله وشدّة طاقته، وشدّة قربه.. أصبح مخفيّاً غير ظاهر، لذلك إنْ نسألْ: أينَ الله؟ عليك أن تجيب: أينَ لا يوجد الله؟!

يا من هو اختفى لفرط نوره

الظاهر الباطن في ظهوره

جميل ما قاله المرحوم الحاج السبزواري، وهو يعني:

"يا من هو مختفٍ لشدّةِ نورهِ، فأنتَ مع ظهورك مخفيّ، وأنتَ مع كونك مخفيٌّ ظاهر بيّن".

وهو مأخوذٌ من الآية الشريفة في القرآن المجيد:

^هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ%[١١]

فالله هو الظاهر، والله هو الباطن، وكلّ ظهور هو ظهور الله، فحينما نريد الله لماذا نبحث عنه؟ فكلّ ظهور هو ظهور لله.

لماذا لا يُدرك إذاً؟

---

١١ ـ سورة الحديد (٥٧) الآية ٣.

أولاً: هو يمكنُ أنْ يُدرَك، ولكن ندركُه في هذه المراتب التي نحن فيها، وأمّا بالنسبة للمراتب الأعلى، فلا بدّ وأنْ نقوّي عيوننا، وأمّا في هذه المراتب التي نحن فيها ندركه، ونحنُ نغوص ليلاً ونهاراً في هذا العالم الذي نعيش فيه، إلاّ أنّنا نقول: أينَ الماء؟ أينَ الماء؟ أينَ الماء؟ أينَ الماء؟ أينَ الماء؟ تماماً كما تقول السمكة: أينَ الماء؟ أينَ الماء؟ فهي مشغولة ببَلْعِ الماء، تبلع وتبلع.. تماماً كما نقول: نحن لا نرى الهواء، فالهواء الذي يقولون إنّ الإنسان يتنفّسه، أينَ هو؟ أينَ هو هذا الهواء الذي يتنفّسه الإنسان؟ أين؟ لماذا لا أرى هذا الهواء؟ واقعاً، هل ترون الهواء؟ ولإدراك باطنه لا بدّ وأن نمتلكَ عيناً أقوى وأدقّ.

وحينما تعتلي الشمسُ السماء في رابعة النهار، يسطعُ نورها على الأرض بشكلٍ عاموديّ، ونحنُ ننعمُ بأشعّتها، الحمد لله.. فالأرضُ مشرقة منيرة.. ولا يمكننا إنكار هذا النور الذي نراه، فنحن ندرك ونشعرُ بهذا النور، وكلّ ما نراه من مظاهر الجمال فهو بواسطة هذه الشمس!! لكنّه لا يمكننا إدراك الشمس نفسها، إلاّ أنْ نرقّي أعيننا، فلو نظرنا إلى قرص الشمس فسوف تحترق عيوننا، وليس معنى ذلك أنّه هناك حجاب أمام الشمس، فالشمس لا حجاب أمامها، ولا يوجد ظلّ ولا غيم، ولا أنّه هناك أمرٌ قدْ صُدِّرَ بأنْ يقف الجبل الفلاني أمامها ليحجب وصول نورها عن عين الإنسان؛ لا، ليس الأمر كذلك، فهي نورٌ ظاهرٌ وشديدٌ، إلاّ أنّ هيكليّة أعيننا غير مؤهّلة لإدراك ذاك الشعاع، فهي ضعيفة. وهذه هي حقيقة الأمر ليس إلاّ، فهل يمكننا حينئذٍ أن نُثنيَ رؤوسنا.. دون أنْ ننظر إلى الشمس.. ثمّ نشكّك ونقول: مَن الذي قال بأنّ هذا النور المنعكس على الأرض هو

من الشمس؟! فلو كانت الشمس مشرقة في وَضح النهار دون أي حركة، ودون أيّ انتقال أو تغيير، بحيث أنّها ثابتة في مكان واحد بشكل دائم، بأن تكون أوّل الظهر وسط السماء، ثمّ بعد ساعة تبقى مكانها، ووقت الغروب كذلك تبقى ثابتة مكانها، وتظلّ على حالها في جميع سائر أوقات الغروب والليل والنهار والصبح والظهر، فالشمس ثابتة لا تتحرّك ولا يختلف مكانها ولا مسافتها عن الأرض، فالطفل حينما يولد كانت الشمس فوق رأسه وحينما صار عمره سنتين فهي مكانها كذلك، وحينما بلغ الخمسين ظلّت الشمس ثابتة فوقَ رأسه، وهكذا بقيت حتّى رحل عن الدنيا. لو كانت الشمس كذلك، فهل بإمكان أحدٍ مع هذا الحال أن يصدّق أنّ هناك ليلاً؟! يعني هل خلقَ الله الليل أم لا؟! هل يمكنه فهم ذلك؟! هل بإمكانه تصوّر معنى العتمة؟! هل يفهم معنى الظلمة؟! هل يدرك معنى الفيء؟! هل يَتفطّن أحد إلى أنّ مصدر هذا النور هو الشمس!! أيّ حكيم فيلسوف يستطيع أنْ يبرهنَ له أنّ النور مصدره الشمس؟! بل سوف يقول حينئذٍ: هذا النور نابع من الأرض.. إنّ النور من الأعشاب.. أو يظنّ أنّ النور يتشعشع من رؤوس الجبال.. فمع أنّ جميع هذا النور منبعثٌ من الشمس، إلاّ أنّه يتوهّم أن منشأ النور هو نفس المكان، وأنّ الأشياء تشعّ نوراً من ذاتها!! ولكن حينما تتحرّك الشمس من مكانها، ويبدأ الظلّ يظهر كما في الأماكن التي تكون الشمس عاموديّة، أو يمتدّ ويتزايد كما في المناطق الأخرى، فحينئذ ينكشفُ بشكلٍ تدريجيّ أنّ مصدر النور ليس هو هذه الأشياء التي نراها، فالأرض ليس لها نور، ولا لأوراق الشجر نور، والدجاج الذي في وكره غير منير، وليس هناك نور يشع من سقف المنزل، وماء

البحر ليس منيراً، كلّ هذه الأشياء ليست مشعّة للنور، وإنّما النور هو لتلك التي تُرسلُ النور، وها هي الآن حينما تحرّكت، قدْ حرّكت النور باتجاهها، وجلبته نحوها، وجعلت جميع الموجودات تحتَ ظلّها، وكلّما تحرّكتْ إلى الوراء فإنّ الظلّ يعلو ويرتفع، حتّى تبلغ الغروب، فحينئذٍ يرتفع الظلّ بشكل عالٍ جداً.

هل جلستمْ في الصحراء حين الغروب؟ حينما تميل الشمس إلى الأفول، حيث يمتدّ ظلّكم إلى جهة المشرق إلى مالا نهاية، وحينما تغيب الشمس تحتَ الأفق، فحينئذٍ تحلّ العتمة، ونشعر بالظلمة، ونعرف معنى النور الذي افتقدناه الآن.. ونعرف أنّه كانَ شيئاً حسناً.. حيث كان بواسطة ذاك النور يعرف رفيقه ويتعرّف عليه.. ويشخّص الدواء.. ويتعرّف على الطعام.. يعرف صديقه.. ويعرف عدوّه.. يتعرّف على الحيوان.. يتعرّف على الإنسان.. يميّز بين الحفرة والطريق السالم، أليس كذلك؟! وأمّا الآنْ، فقد حلّ الظلام، فأنتَ في ظلام الصحراء الدامس، إنْ يمسح بيده على الأرض، لا يعرف أدواءٌ هنا أمْ سمّ؟ هذا عدوّه أم رفيقه؟ هل هذا طعام؟ ما هي هذه الموجودات؟ هذه الروائع الخلابة.. هذه الخُضار.. هذه الألوان.. فأينَ ذهبتْ وتلاشت حينما اختفت الشمس؟ إلى أينَ راحَتْ الألوان؟ لون البلبل.. لون الكنار.. لماذا لا ترى ألوان الورود والأعشاب في الليل؟ فللّون للنّور، وحينما لا يوجد النور فلا لون، لأنّ العالم في الظلمة القاطمة، ومتى تُدركُ حقيقة هذا الكلام؟ تدركه حينما تأتي الشمس وتغيب، ويأتي الليل والنهار والنور والظلمة، حينئذٍ ندرك أنّ النور مصدره الشمس، ولا يعود مجال للإنكار حينئذٍ، فأيّ طفلٍ تسأله: من أين يأتي الضوء؟ سوف

يجيب: من الشمس، وإنْ تحاول أن تسأله وتستوضح منه، فسوف يقول لك: هل أنتَ مصابٌ في عقلك؟! النور من الشمس، ولا شكّ ولا شبهة في ذلك، فلماذا يحلّ الظلام في الليل؟ لأنّه لا شمس حينئذٍ، وإنشاء الله تطلع الشمس ثانيةً، ويعود الجمال كما كان في العالم، أليس كذلك؟! ألا يقول الطفل كذلك؟!

اگر خورشید، بر یك حال بودی
شعاع او به یك منوال بودی[١٢]
کسي داندکاین پرتو از اوست
نکردي هيچ فرق از مغز تا پوست
جهان جمله، فروغ نورِ حق دان
حق اندر وي ز پيدائيست پنهان
چو نورِ حقّ ندارد نقل وتحويل
نيايد اندر او تغيير وتبديل
تو پنداری جهان خود هست دائم
بذات خويشتن پيوسته قائم

١٢ ـ يعني: لو كانت الشمس على منوال واحد وبشكل واحد (بحيث لا تطلع ولا تغرب) فلا نفهم ما معنى الشمس، ولتخيّلنا أنْ الأرض مضيئة بنفسها دون الشمس.

فلا يعلم شخص أنّ هذا الضوء من الشمس

فمن حيث أنّ نور الله تعالى ليس فيه تحويل وتبديل، لا يدخل فيه وفي جوّه تبديل ولا تغيير

فأنت تفكّر أنّ العالم قائم بنفسه، وأنّه قائم بذاته، وهذا محال.

وذلك للآيات الآفاقيّة، وأمّا إن أردتم ما هو أعلى من ذلك.. بحيث تريدون مشاهدة الشمس نفسها، فلا بدّ من معالجة العين، وليس هناك من سبيل آخر!!

والأفراد المعتقدون بوحدانيّة الله يعمدون إلى تطهير قلوبهم، فلا يعصون، ولا يبثّون الحقد.. وليسوا بالحسودين.. ولا بالبخلاء.. وليسوا عبيداً للمال.. ولا طالبين للجاه.. فهذه الصفات التي يستجمعها الإنسان، إنّما تؤدّي إلى انسداد روحه وتلاشي همّته.. حيثُ تجعلُه حبيساً مكبّلاً.. وحينما يتيه في سجنها لا يعود يتجاوز نظره عالمَ الكثرات، ومهما نظرَ وحدّقَ سوف يقع نظره عليها، فمحبّته إنّما تتعلّق بالموجودات المتعدّدة، يطلبُ المال.. ويطلب الجاه.. يكونُ حريصاً.. ويصبحُ بخيلاً.. ويكونُ قلبه معتماً مظلماً.. فقدْ بعُدَ عن نور الوجود، لأنّ نظره إنّما يقعُ على تلك البالوعة المظلمة.. فقد سُلبَ قوّة البصيرة.. وأصبحَ ضريراً معمِيَّ الباطن.. أو أنّ عينه الباطنيّة أصبحت رمداء.. أصبحت عينه سقيمة.. لا يقدرُ على الإبصار.. وصار كالخفّاش لا يقوى على الطيران في النهار.. فالطيور تحلّق وتطير!! إلاّ أنّ هذا المسكين لا يمكنه ذلك بل عليه أن يقبعَ في وكره.. وحينما تغرب الشمس!! حينئذٍ يمكنه الطيران..

فهذا الإنسان الذي يحيكُ نظرَه ويقصره على تعيّن عالم الوجود وتقيّده، يجعل الأصالة للمادة، ويلتزم بأصالة الكثرة، ويبني عمله على أساس الثنائيّة والنفاق والنزاع والجور والظلم والخصام والتعدّي والعدوان، فإنّ قلبه متوجّه إلى ذاك التعيّن، وهو لا يقدر على رؤية الله، حتّى وإنْ كان في الماء!! كما كان الأمر بالنسبة إلى تلك السمكة، حيثُ أنّها لم

تخرج من الماء، ولكن كيف بها لو كانت عمياء!! فهي حينئذٍ مع كونها في الماء إلاّ أنّها لا ترى.

ولو يبتعد الإنسان عن هذه الصفات ويهجرها، فإنّ روحه تبدأ تتنشّط تدريجيّاً، وتنقى عينه وتصفى، وتتهاوى الحجب أمامه تدريجياً، ويشتدّ ويقوى حينئذٍ.

يقول البعض: إنّ بمقدورهم أنْ ينظروا إلى الشمس في النهار وذلك بواسطة الاستفادة من بعض الأدوية لمدّة معيّنة وبطريقة خاصّة، فيتمكّنون من رؤية الشمس دون أنْ يتسبّب ذلك بأيّ أذىً في أعينهم، كذلك كان بعض المنجّمين السابقين يستطيعون رؤية عددٍ من النجوم، وذلك من خلال تقوية أعينهم ببعض الأدوية، وكانوا يراقبون النجوم كيف أنّ بعضها يمرّ أمام البعض الآخر فيحجبه عن الرؤية فيعرفون أنّه أقرب من ذاك، وكلّ ذلك كان في النهار! يرون النجوم في النهار!! إلاّ أنّ الأناس العاديين لا يمكنهم مشاهدة ذلك.

وقد أتى القرآن والأنبياء وقالوا: أيّها السيّد! عالج عينك الباطنيّة.. يمكنك حينئذٍ مشاهدة الشمس، ويمكنك أن ترى النجوم، فترى الأمور كما هي في الواقع، وتشاهد الباطن وتراه.

^هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ%(١٣) فها نحن نرى الظاهر بحمد الله، ويجب علينا أن نرى الباطن أيضاً، فمتى يمكننا أن نشاهد الباطن؟! يمكننا ذلك حينما ينتقل نظرنا من الكثرة إلى الوحدة،

١٣ ـ سورة الحديد (٥٧) مقطع من الآية ٣.

يعني: لا يتوجّه إلى الموجودات بالنظر الاستقلاليّ، ولا يرى عالم الملك والملكوت بشكل مستقل، وإنّما يراها جميعاً قائمة بالله ومتقوّمة به، وهو إنّما يحصل بواسطة طهارة الأخلاق، ولا يحصل بمجرّد التفكّر والتعقّل والمطالعة، وإنّما يحتاج إلى تهذيب النفس.. والفهم.. والتحلّي بالأخلاق اللائقة.. والعبوديّة.. والتنظيم.. نعم على الإنسان أن يكون منظّماً.

حينئذٍ، يرى أنّه ليس لله حجاب، ولا ستار أمامه، فلله وجود ورحمة وخالقيّة ورازقيّة وعلم وحكمة وحياة وقدرة، فكلّ الصفات الحقيقيّة أو الصفات النسبيّة أو الإضافيّة إنّما تنشأ من ناحيته وتنبعث منه حتّى تملأَ جميع العوالم، في حين أنّه لم يخسر شيئاً من تلك الصفات والأسماء، كما ولمْ تكنْ لتمثّل ساتراً وحجاباً، فمن أيّ شيء ينشأ الحجاب والستار؟! ينشأ من قصور الادراك وضعفه.

حجاب روى تو هم روى توست در همه حال

نهان زچشم جهانى زبس كه پيدائى[١٤]

جمـــال يـار نـدارد نقـــاب و پـــــرده ولـي

غبار ره بنشـان تا نظـــر تواني كرد

فحينما يأتي من بعيد منتحياً بيتَ السلطان.. وجفونه وعيونه ووجهه متّسخة بالتراب والغبار.. سوف لا يستطيع مشاهدة المحبوب، وليس ذلك

---

١٤ ـ يعني: في كلّ الأحوال نفسك تكون الحجاب بينك وبين الله تعالى، فالله يخاطبنا بأنّ شدّة النورانيّة والظهور هي بنفسها الحجاب القائم بينه وبيننا، فأنتَ مخفيّ في عين العالم لأنّك ظاهر في أشدّ الظهور.
وليس لجمال الحبيب نقاب وستار، ولكن عليك أن تنظّف الطريق من الغبار كي تقدر أن ترى الحبيب ولا بدّ من أن تصفيّ القلب.

لوجود حجاب!! فلا حجاب هناك.. بل هو الغبار العالق على وجهه.. فليذهب إلى ساقية الماء ويغسل وجهه.. وليغتسل! وليتطهّر!!

شتشوئی کن وآنگاه به خرابات خرام
تا نگردد زتو این دیر خراب آلوده[١٥]

وحينما تطهّر، صار بإمكانه مشاهدة معشوقه:

یــار نزدیـکتـــــر از مــن به مــــن اســـت
وین عجـب‌تر کـه مـن از وي دورم[١٦]
چه کـنم با کـه تـوان گفـت که دوســـت
در میـــانِ مـن و مـــن مهجـــــورم

يَا مَـنْ هُوَ اخْتَـفَي لِفَـرطِ نُـورِه
الظَّاهِرُ البَاطِـنُ فِي ظُـــهُورِهِ
بِنُورِ وَجْـهِهِ اِسْتَـنَار كُـلُّ شَــيء
وَ عِنـدَ نُـورِ وَجْهِهِ سِوَاهُ فَيْئ

١٥ ـ يعني: فلا بدّ لك أن تغسل القلب وبعد ذلك تطّلع على الخرابات ـ وهي مكان السر والعوالم العليا ـ لأنّه لو لم تنظّف نفسك سوف يكون في هذا البيت وسخ من نفسك.

١٦ ـ يعني: الحبيب أقرب إليّ منّي (إشارة إلى قوله تعالى: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وكذلك قوله تعالى: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ) ولكن مع كلّ ذلك فالعجب كيف أنّي بعيد!!
فماذا أفعل ومع أي شخص أقدر أن أحكي وأتكلّم، فالحبيب قريب وأنا مهجور بعيد!!

أَزِمَّـةُ الأُمُـــورِ طُـــرّاً بِيَـــدِهِ
وَ الكُـلُّ مُستَمِـدَّةٌ مِـن مَـدَدِهِ

لقد أجادَ المرحوم الحاج السبزواريّ في اقتباسه من الآية الكريمة السابقة، وكذلك من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

اللّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسينَ لأولِيائِكَ وَ أحضَرُهُم بالكِفايَةِ لِلْمُتِوكِّلينَ عَلَيكَ تُشاهِدُهُم في سَرائِرِهِم وَ تَطَّلِعُ عَلَيهِم فِي ضَمائِرِهِم وَ تَعلَمُ مَبلَغَ بَصائِرِهِم فَأسَرارُهُمْ لَكَ مَكشُوفَة وَ قلوبُهُم إليكَ مَلهُوفَة إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الغُربَةُ آنَسَهُم ذِكرُكَ وَ إن صُبَّت عَلَيهُم الْمَصَائبُ لجأوا إلى الاستِجَارَةِ بكَ، عِلماً بِأَنّ أَزِمَّةَ الأُمُورِ بيَدِكَ وَ مَصادِرَها عَن قَضائِك.

يعني: إنّ الله يعلم أنّ العلم والعرفان قد عُجِنَ في صميم قلوبهم، فهم يرون أنّ زمام كلّ أمرٍ بيدك، وكلّ قضاء إنّما يصدر من عندك.

فلأجل ذلك، أيّ فعل، وأيّ اسم، أيّ صفة، أيّ حركة، وأيّ شيء موجود فهو من نور الله وتجلّيه.

كنّا قدْ أردنا أن نبيّن معنى الجمال والجلال في هذه الليلة، فما هي صفة الجمال؟ وما هي صفة الجلال؟ وما معنى الستر والحجاب؟ فمادام الله ظاهراً إلى هذا الحدّ، من أين يأتي هذا الحجاب؟ وما هي حقيقة الجمال والجلال؟ هل هناك صفة سلبية؟ وهل هناك صفة إيجابية؟ فقد امتدّ بحثنا فيما يتعلّق بظهور الله إلى حدّ لم يبقى لنا مجال آخر، واقتربَ حلول شهر رمضان، ولا ندري ما إنْ سنوفّق للحديث عن ذلك في ليالي شهر رمضان أم لا؟ فإنْ وُفقنا فسوف نستمرّ في هذه البحوث في لياليه،

فيما يتعلّقُ بتفسير الآية المباركة، وإلا فبحول الله وقوّته نرجئه إلى الثلاثاء الواقع بعد شهر رمضان، إنْ كنّا من الأحياء ورزقنا التوفيق.

فيا الله العليّ الأعلى، نسألك ببركة أوليائك، والعطاشى إلى سلوك سبيلك، والعاشقين لحريمك، والمولهين بمقام جمالك، والحيارى في حرمِ أمنك وأنسك، من الأنبياء والمرسلين والأئمّة والأولياء المقربين الذين ....